

مفاجأة الخاتمة في شعر رشيد مجيد

أ.د. مصطفى لطيف عارف
آمال مدلول عطيه

الملخص

نحاول في بحثنا هذا أن نسلط الضوء على شعر الشاعر رشيد مجيد، وقد اخترنا من شعره زاوية تقنية محددة تتلخص في الخاتمة التي تنتهي بها قصائده، كي نتبين عن طريقها كيف يبني الشاعر قصيدته من حيث الختام، وهل تسهم تلك الخاتمة بخلق جو من التفاعل والانفعال بين النص الشعري والمتلقي، لذلك فإن أهم ما سنعمد إليه هو تحليل نماذج معينة من شعر رشيد مجيد كي نقف على أهم أساليب بناء خاتمة قصائده.

الكلمات المفتاحية: مفاجأة الخاتمة، شعر رشيد مجيد.

The Surprise of the Conclusion in the Poetry of Rashid Majeed

Prof. Dr. Mostafa Latif Aref
Amal Medoul Attia

ABSTRACT

In this research, we try to shed light on the poetry of the poet Rashid Majeed. We have chosen from his poetry a specific technical angle from his poetry that is summarized in the conclusion with which his poems end, in order to see through it how the poet builds his poem in terms of the conclusion, and does that conclusion contribute to Create an atmosphere of interaction and emotion between the poetic text and the recipient ;therefore, the most important thing we will do is to analyze certain models of Rashid Majeed's poetry in order to stand on the most important methods of building the conclusion of his poems.

Keywords: surprise of the conclusion, poetry of Rashid Majeed.

التمهيد:

تعرف الخاتمة لغويا على إنها: هي بلوغ الغاية من الشيء أو نهايته، من ذلك ما جاء في قولهم: ختم الشيء يختم ختماً : بلغ أمره ، وخاتمة كل شيء عاقبته وآخره ، واختتمت الشيء : نقيض افتتحته(1)، وخاتمة الكلام أبقى في السمع والنفس، وذلك لبقاء أثرها عالماً في مخيلة المتلقي لها ودواخله ، وهي – أيضاً – مقياس إجادة الكلام من عدمه(2).

وفي الأدب فإنها تكون ((وسيلة فنية بلاغية وفكرية، تولد في القارئ الإحساس ببلوغ الغاية)) (3)، وهناك بعض المشيرات المادية أو الصيغ الطقسية المألوفة التي تدل على النهاية أو الخاتمة في داخل الأعمال الأدبية وهي:

1_ الصيغ الختامية الماثورة : (تمت) ، و (انتهت) ، وما شابه ذلك .

2_ الصيغ الختامية بوساطة تدوين (التواريخ) .

3_ الصيغ الختامية التي تأخذ شكل السلسلة من المؤلفات المترابطة : (الثنائية) و (الثلاثية) وغيرها .

4_ الصيغ الختامية المتوقفة أو اللانهاية (النص المفتوح)(4).

ومن هنا فإنَّ إشكالية العلاقة بين القارئ والنص الأدبي تتحدد في مسألة التأويل، إذ يسعى القارئ إلى اختراق الحجب النصية أو طبقات النص الباطنية ودلالاته المعنوية وتلك رغبة منه في إشباع اللذة المبتغاة من نتيجة الوصول أو البرهنة على صدق توقعاته وصحتها وسلامتها(5)، وبما تحمله الخاتمة من ((عناصر إثارة تخيلية للمتلقي وتحصيل منعة الاكتشاف وانفراج الأزمة وتحصيل الغاية)) (6).

فتبرز هذه الإشكالية – بين القارئ والنص – كثيراً عندما تعتمد الخاتمة على عنصر المفاجأة الذي يقوم على روح المفارقة واللا متوقع بغية إشارة القارئ واستفرازه عن طريق المخالفة لما يترقبه أو ينتظره في التتبع لسياق الأهداف النصية أو بين بداية المتن النصي للقصيدة ونهايته(7)، وهو – عنصر المفاجأة – ملمحاً مفارقاً من ملامح قصيدة الومضة، فيهيمن على ملامحها الأخرى ليكون علامة فارقة تُعرف بها الومضة(8)، وتكون هذه الخاتمة على نوعين: الخاتمة المغلقة – الحاسمة – على مقصد القصيدة أو غايتها وأحداثها(9)، والنوع الآخر بأن تكون الخاتمة المفتوحة على أبواب من التأويل وذلك وفقاً لما توحى به الألفاظ أو السياق النصي من طاقة إيحائية .

فتتبلور مفاجأة الخاتمة بذلك ((عند الانتهاء من القراءة في شعور مبهم بأننا لم نجد ما نتوقعه من القصيدة وذلك في مقابل النموذج الشعري التقليدي الذي يعتمد كلياً على إشباع التوقع)) (10)، لذا يعد خطاب النهاية أو الخاتمة من المواقع الحاسمة في بنية العمل الأدبي ولا سيما السردية؛ لأنَّ النص الأدبي يكون عبارة عن وحدة أو بنية عضوية تستلزم ترتيباً بنيوياً افتراضياً، ومن بين أهم عناصرها البنائية أو البنيوية وأعدها تكون (الخاتمة) التي تتطلبها كل ممارسة أو بنية سردية أو حكاية، فيقتضي من الكاتب تفكير طويل قبل كتابة أو وضع نقطة هذه النهاية أو الخاتمة(11).

لذا جاءت النصوص الشعرية للشاعر رشيد مجيد حاملة لبنيّة مفاجأة الخاتمة في عدد من قصائده ، وأبرز ما يمثل ذلك قصيدة (الإدانة) ، التي يقول فيها :

لا تسألوا ...

ودعوا شفاه جراحه تتحدث ،

هو ذا (محمد) يبعث ،

طفحت ، وفاضت كأسه ،

هو ذا (محمد) ... في إدانته لكم ،

ما عاد إلا بأسه (12) ،

ما عاد إلا بأسه ،

هو ذا (محمد) في يديه دم (الحسين) ورأسه

نلاحظ في جملة الاستهلال أو المفتاح الشعري في قوله (لا تسألوا) المتكونة من لا الناهية والفعل المضارع الخلق بحالة من الجذب والفضول والشغف عند المتلقي نحو المتابعة بحثاً عن تفسير أو جواب لذلك التحديد أو النهي عن السؤال أو الفعل وفي الكف عنه، ومن ثم محاولة الانتقال في سياق الأحداث المتسلسل في إطار من البنية السردية. والفكرية للقصيدة في قوله (هو ذا (محمد) يبعث) في القدرة التعبيرية عن المغزى الشعري عن طريق هذه البنية السردية الإخبارية اللا واقعية في مخالفة سنة الكون والخلق الإلهي والفسولوجي الجسدي (معنوياً) ، وذات التسلسل في الحدث التتابعي المنطقي السببي (سياقياً)؛ لأنَّ ((للانفعال تأثير كبير في شحذ قوة التخيل عند الشاعر وإعانتة على صياغة صورهِ الشعرية(13)).

وإلى إثارة المفاجأة بالخاتمة (هو ذا (محمد) يبعث ، في يديه دم (الحسين) ورأسه) وهي البؤرة أو الفكرة التي تدور حولها أحداث النص والتي تغلق بها دورة هذه الأحداث (المغلقة) وهي حادثة استشهاد الإمام الحسين (A) في واقعة الطف ، وبشاعة ذلك الفعل أو الموقف ، وانبعاث الرسول محمد (9) ، وفي إدانته للمعتدين، والاستمرار لأفعال الخيانة والخذلان واللاجدوى من صحوة الضمير لديهم ، إذ انطوت على انزياح في سياق الأحداث فهي مفارقة ذات وجود نصي(14).

وبالعودة للنص الذي جاء مكتوباً باللغة الشعرية غلبت عليها أنفاس المفارقة والتكثيف واختزال الأحداث السريعة ، التي زجت القارئ بمناهات الانزياح والاستعارة من الاستهلال إلى الخاتمة (شفاه جراحه ، تتحدث ، يبعث ، طفحت وفاضت كأسه، ما عاد إلا بأسه ، في يديه دم الحسين ورأسه) ، فهي لغة ((مجازية تعتمد خروج الكلمة من معناها الموضوع لها في اللغة إلى فضاء الدلالات المشحونة بالعاطفة الإنسانية)) (15)، فضلاً عن التوظيف في الأساليب أو التقانات السردية المختلفة للمساعدة في تسيير الأحداث والكشف عن محور الفكرة الرئيسية الذي تدور حوله هذه الأحداث ، مثل : الزمان ، والمكان في دلالة البحث أو الإحياء من جديد في ذهن الشاعر والمتحقق في سياق الأحداث والنص الشعري عند القراءة للمتلقي ، وتفاعل الشخصيات المتمثلة بشخصية النبي محمد (9) وما توج به من رغبات ومواقف وصراع نفسي ، وشخصية الإمام الحسين (A) على سبيل الإشارة السريعة والفكرة العميقة ، وشخصية الآخر المتلقي أو المعتدي ، وشخصية السارد الشعرية- الشاعر – نفسه .

ما يزال الشاعر رشيد مجيد يرتكز على مفاجأة الخاتمة في قصيدة (الساعة الثامنة) فيقول فيها:

أثرى عشرتنا رفقة درب وانتهت ... ؟
وانتهى كل الذي بين رفيق ورفيق ... ؟
إيه يا (...) ما أبعد شيطان المنى ... ؟
وارتداد الموج عن هذا الغريق ... ؟ (16)

إذ لا تقوم قصيدة الومضة على (شعرية الحملة الواحدة بل شعرية الرؤيا في إطارها النبوي ، فيرتقي الشاعر باللغة مشكلاً كلمات ترفع مستواها الدلالي ، وحين يتمكن المبدع من القبض على جوهر النص تحدث المتعة الفنية (17)، وذلك ما تُشير إليه نهاية السطر الأخير في هذا النص الشعري (وارتداد الموج عن هذا الغريق) في التضمين لمفاجأة الخاتمة (المفتوحة) على أبواب من القراءة والتأويل والمفارقة، فيتوارى خلف هذه الأشياء أو الألفاظ أو الصورة أو الرؤيا الشعرية أبعاد دلالية يريدها الشاعر أو هي مقصديته أو المغزى من الوجود لحالة التضاد بين المعنيين المتقابلين على وجه التلميح بالعكس من ذلك لا التصريح.

فالشاعر يتمنى لو يتحقق واقعاً اللقاء ورجوع موثيق الصداقة والمحبة والوفاء بينه وبين هذه المرأة – الحبيبة – وفي ذلك كسراً للمألوف أو رؤية مغايرة لما استقر في ذهن القارئ من الصورة في المتعارف عليه للواقع ، فالموج هو أحد الأسباب التي تؤدي إلى الغرق والهلاك ، فيعتمد الشاعر ((على تكثيف التجربة واختزالها إلى الحد الذي يجعل من القصيدة صورة شعرية واحدة مكتملة الأبعاد والرؤى)) (18)، وقد استنطق النص الشعري من التوظيف لآليات السرد من الحوار الداخلي في المناجاة لطيف هذه المرأة ، والذي أشار إليه رمزاً أو خفية بالنقاط الثلاث (...) والذي ساعد في نقل وتصوير المشاعر الإنسانية الصادقة النابعة من أعماق الشاعر ودواخله ، وللفضاء السردى للزمان والمكان بوساطة دلالة الألفاظ ظاهراً والمعاني باطنياً ، عن طريق الإيحاء والسياق ، وفي الشخوص المتمثلة بشخصية (الذات) للشاعر التي أصابها الخيانة والخذلان، وقد أكد على ذلك وأردف بلفظ (إيه) للدلالة على الحسرة والتوجع والألم على ما مضى ، واسم المنادى في شخصية (الحبيبة)، والحدث العاطفي .

وفي قصيدته (رفضوا أن يموتوا) ، التي يقول فيها :

معكم أبقي ، وتبقون معي ،

نغماً حلواً ، تهادى في حذاء القافلة

فأنا الحب الذي يرفض يوماً أن يوارى أو يموت

وبأن تهجع أشواقي ، ويأتيها الخفوت

أنني أقوى من الموت ،

وأبقى من صدى كلمة (مات)

أنني أرفض هذا ...

وأرى موتي حياة

وأرى موتي حياة (19)

يطرح الشاعر على مسامع المتلقي في هذه القصيدة الشعرية قضية اجتماعية وهي قضية وجدانية عاطفية أو الحب (فأنا الحب الذي يرفض يوماً أن يوارى أو يموت)، في مجتمعنا ومواجهتها بالرفض والأعراف والتقاليد والدين، إذ ((تنهض قصيدة الومضة بأحادية لحظوية أو فردية مشهدة تومض في بؤرة مركزية واحدة)) (20)، التي جاءت في إطار من المفارقة أو التضاد بين بداية المتن النصي أو الاستهلال الحدتي وبين الخاتمة المفاجأة (المفتوحة) على عدد من الأسئلة والحاجة إلى تأويلها (إنني أرفض، وأرى موتي حياة).

أي بين معاني القوة والرفض والإصرار على البقاء أو الحياة، وبين الاستسلام للموت والواقع، فإن ((مباغثة القارئ أو مفاجئته وهو منسجم مع الأحداث والمواقف السردية بعنصر أو بنية حكائية غير متوقعة هو الذي يولد المفارقة في السرد)) (21)، وذلك على المستوى الموضوعي أو مستوى الفكرة الجوهرية للنص الشعري التي تدور حولها الأحداث وشخصياته وفضاءاته السردية المتحققة في كل قصيدة ومضة شعرية ذات بنية سردية.

وفي قصيدة (العيون)، يقول الشاعر:

ما الذي يأمرنا أن ننحني،

لك طوعاً بجلالٍ وخشوع وجنون؟

بعد أن تبنا عن الحب، وطلقنا هواناً؟

وتسترننا على هذا الجنون؟

ثم ماذا ...؟

ذهب الحلم، وعدنا للهوى

والتقينا مرةً أخرى ... فأهلاً يا جنون (22)

فنحن أمام قصيدة ومضة شعرية ذات بناء سياقي مفارق (بعد أن تبنا عن الحب، وعدنا للهوى، والتقينا)، إذ جسد الحدث السرد صراع الذات – للشاعر – في تناقضها بين الرجوع أو الرفض الذي تدور حوله الفكرة أو البنية السردية للنص الشعري في إطارها العاطفي، وهي سمة غالبية على أكثر نصوص الشاعر، فالومضة هي ((إضاءة الفكرة وتوجهها الحاد الذي لا يدع مجالاً للشك في خصوصية التجربة ومداه)) (23).

ولجأ الشاعر إلى البنية الاستفهامية ولا سيما في جملة (ثم ماذا ...؟) وتقنية النقاط الثلاث في نهاية القصيدة للمساعدة في تسير الحدث وتتابعه وفي التهيئة والاستعداد للمتلقى في استقبال بنية المفاجأة والمفارقة في الخاتمة للقصيدة. فيعمد الشاعر إلى الضربة الشعرية في قصيدة الومضة عن طريق مفاجأة الخاتمة في تحقيق أكبر قدر ممكن من الكثافة والتركيز لاستيعاب تجربته الشعرية (24).

الخاتمة:

في الختام وجدنا إن الشاعر يركز على كسر أفق المتلقي عن طريق المفارقات اللغوية التي تنتهي عليها قصائده، فهو يتخذ من تلك المفاجآت في ختام قصائده مرتكزا أساسيا في فتح نصوصه أمام تأويل المتلقي، وهو بذلك يحقق غايتين بالوقت نفسه، الأولى تتعلق بماهية الشعرية التي تعتمد على المفارقات اللغوية التي تؤدي إلى مفاجآت معنوية حيث إن الشعر خطاب زئبقي مراوغ، والثانية هي إشراك المتلقي في تخيل خاتمة مغايرة أو القنوع بما ورد في النص.

الهوامش:

- (1) يُنظر : لسان العرب : مادة (ختم) .
- (2) يُنظر : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت 456 هـ) ، حققه : محمد محيي الدين عبد الحميد : 217/1 .
- (3) معجم مصطلحات نقد الرواية : لطيف زيتوني: 585 .
- (4) يُنظر : البداية والنهاية في الرواية العربية : عبد الملك اشبهون : 253-242 .
- (5) يُنظر : مقدمة في نظرية القراءة والتلقي : محمد صابر عبيد : 9 ، ويُنظر : فعل القراءة (نظرية جمالية التجاوب في الأردن) : فولغانغ إيزر ، ترجمة : حميد الحمداني والجلالي الكدية : 12 .
- (6) بنية السرد في القصص الصوفي (المكونات ، والوظائف ، والتقنيات) : ناهضة ستار: 88
- (7) يُنظر : عناصر الإبداع في شعر أحمد مطر : 232 ، ويُنظر : شعرية السرد في شعر أحمد مطر : 222 .
- (8) يُنظر : في التجنيس البيني (الأجناس الشعرية القصيرة مثلاً) : 63 .
- (9) يُنظر : قصيدة الومضة في شعر بشري البستاني : 141 .
- (10) شفرات النص (دراسة سيميولوجية في شعرية القص والقصد) : صلاح فضل : 86 .
- (11) يُنظر : البداية والنهاية في الرواية العربية : 230 .
- (12) الأعمال الشعرية : 69 .
- (13) الأسس الفنية لأساليب البلاغة العربية : مجيد عبد الحميد ناجي: 17 .
- (14) يُنظر : شعرية السرد في شعر أحمد مطر : 234 .
- (15) الجمالية في النص الشعري (مطولة بلقيس نموذجاً) ، وسام محمد الهلالي : 120 .
- (16) الأعمال الشعرية، رشيد مجيد : 671 .
- (17) القصيدة الومضة إشكالية التسمية وتقاناتها في شعر فاضل حاتم : 14 .
- (18) القصيدة المركزة في شعر عبد الرزاق الربيعي : 154 .
- (19) الأعمال الشعرية : 389 .
- (20) في التجنيس البيني (الأجناس الشعرية القصيدة مثلاً) : 44 .
- (21) شعرية السرد في شعر أحمد مطر: 223 .
- (22) مقاطع من قصائد متفرقة : رشيد مجيد ، مخطوط : 11 .
- (23) قصيدة الومضة نحو أسلوب شعري جديد ، رفل حسين طه وذكريات طالب حسين : 9 .
- (24) يُنظر : نماذج البناء الفني في شعر أحمد عبد المعطي حجازي ، محمد صابر عبيد : 102 .

المصادر والمراجع

1. الأسس الفنية لأساليب البلاغة العربية : مجيد عبد الحميد ناجي ، المؤسسة الجامعية ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 1984م .
2. الأعمال الشعرية، رشيد مجيد .
3. البداية والنهاية في الرواية العربية : عبد الملك أشبهون ، رؤية ، القاهرة – مصر ، ط1 ، 2013م.
4. البداية والنهاية في الرواية العربية.
5. بنية السرد في القصص الصوفي (المكونات ، والوظائف ، والتقنيات) : ناهضة ستار ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق – سوريا ، (د . ط) ، 2003م.
6. الجمالية في النص الشعري (مطولة بلقيس نموذجاً) ، وسام محمد الهلالي ، مجلة القادسية ، كلية الآداب والعلوم التربوية ، ع403 ، مج 6 ، 2007م : 120 .
7. شعرية السرد في شعر أحمد مطر .
8. شفرات النص (دراسة سيميولوجية في شعرية القص والقصد) : صلاح فضل ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة – مصر ، ط2 ، 1995م.
9. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت 456 هـ) ، حققه : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجبل ، بيروت – لبنان ، ط5 ، 1981م.
10. عناصر الإبداع في شعر أحمد مطر : 232.
11. فعل القراءة (نظرية جمالية التجارب في الأردن) : فولغانغ إيزر ، ترجمة : حميد الحمداني والجلالي الكدية ، منشورات المناهل ، فاس – المغرب ، (د . ط) ، (د . ت)
12. في التجنيس البيني (الأجناس الشعرية القصيدة مثلاً) .
13. في التجنيس البيني (الأجناس الشعرية القصيرة مثلاً) .
14. القصيدة المركزة في شعر عبد الرزاق الربيعي .
15. القصيدة الومضة إشكالية التسمية وتقاناتها في شعر فاضل حاتم .
16. قصيدة الومضة في شعر بشرى البستاني.
17. قصيدة الومضة نحو أسلوب شعري جديد ، رفل حسين طه وذكريات طالب حسين ، مجلة الباحث ، كلية التربية للعلوم الإنسانية ، جامعة كربلاء ، ع4 ، مج 11 ، 2014م .
18. لسان العرب : مادة (ختم) .
19. معجم مصطلحات نقد الرواية : لطيف زيتوني ، مكتبة لبنان ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 2002م.
20. مقاطع من قصائد متفرقة : رشيد مجيد ، مخطوط .
21. مقدمة في نظرية القراءة والتلقي : محمد صابر عبيد ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، ردمك – الأردن ، ط1 ، 2015م .
22. نماذج البناء الفني في شعر أحمد عبد المعطي حجازي ، محمد صابر عبيد ، مجلة الأقلام ، ع2 ، 1997م.